بلاغة العرب والافرنج

لحضرة الشاعر الفيد احمد افندي كامل

رأيت في جريدة المقتطف الغادرة في الشهر الماضي مقالة تحت عنوان (مثال في الانشاء) مترجمة عن منشآت رديرد كبلنغ الكاتب الشاعر الانكليزي فدعاني ما رأيت فيها ان اكتب هذه المقالة في بلاغة العرب والافرنج والموازنة بينهما بقدر ما تسع هذه المجالة

يتركب الكلام البليغ من ثلاثة اجزاء اللفظ والمعنى والموضوع فان كان اللفظ شريفاً غير متنافر ولا خارج عن القياس ولا مبتذل وكان المعنى عجيباً في بابه مخترعاً بديعاً وكان الموضوع حسن التصوّر والتصوير فهناك الكلام البليغ والمطلق الحر الذي تتفاضل الادباء في صوغ آياته وتتنازع الشعراء والكتّاب في الوصول الى معالي رُقياته

ثم ان ارتباط المعنى باللفظ هو ارتباط الروح بالجسد يضعف بضعفه ويقوى بقوته فان ضعف اللفظ عن المعنى الجيد كان كالاشلّ الذي يقعده حاله عن النهوض بما تدعوه اليه روحه من العزائم . وان خلا اللفظ من المعنى بقي كالجسد الموات الذي نقص منه روحه اي نقص كله . وايضاً فالمرجع في المعنى وانتاجه الى الفكر والمرجع في تصوير الموضوع الى المخيّلة فكلما كان الفكر عالياً والمخيلة واسعة الرحاب فثمّ عالم الابداع واي التصوير والاختراع

وقد رأينا فيما وصل الينا من كلام المتقدمين والمتأخرين من فصحاء العرب كلاماً كثيراً استوفى شروط البلاغة هذه في النظم والنثر وكذلك رأينا فيما ترجم الينا من كلام الفرس بلاغات عالية وناهيك بالسعدي والفردوسي وجلال الدين الرومي صاحب المثنوي والخيام المدعو خلاّق المعاني وغيرهم

اما الافرنج فلم يصل الينا شيء من كلامهم يصح ان يوصف بالبلاغة البالغة والفصاحة الفائقة ولو قيس ما وصل الينا من ذلك على ما عند العرب والفرس لوُجد بينهما فرق عظيم وبون جسيم فاما ان يكون لقوم حظ من البلاغة العالية او لا فان كان الاول فاخلق بادبائنا العالمين بلغاتهم ان يترجموا لنا الكثير من اشعارهم ومنشآتهم الفصيحة ومعانيهم المخترعة وتشبيهاتهم فيخدمون هذا اللسان بنقل علومهم الادبية كما خدموه بنقل علومهم الطبيعية والرياضية . وان كان الثاني فيجب ان تعلم هذه الحقيقة وهي ان الافرنج مع عظم شأنهم في العلوم والصنائع لم يبلغوا مبلغ العرب والفرس في البلاغة

وقد اردت ان ابين هنا بعض الامثلة ايضاحاً لما قدمته من ان ما وصلنا من كلامهم

ومختار اشعارهم ليس من البلاغة في شيء واقاربها بما في معناها من كلام فصحاء العرب حتى يتبين الفرق بالموازنة بينهما .

١ — نشرت جريدة المقتطف في شهر مايو سنة ١٨٩٩ قصيدة مختارة لشاعر اسمهُ (رديرد كبلنغ) وصفتهُ بانهُ (رب المنظوم والمنثور عند الامة الانكليزية) وقد ترجمت هذه القصيدة ترجمة حسنة مع حفظ جميع معانيها وها هي بنصها

احملوا حمل الحضاره واضرموا حرب السلام
اشبعوا جوف المجاعه واسقوا داء السقام
واغمدوا سيف القناعه وانتضوا سيف الخصام
كل جهل وتأخر ليس فيهِ من قوام
احملوا حمل الحضاره وانبذوا ما دونهُ
لا تملُّوا فتقولوا عنهم تبغونهُ
كل قول عندهم بل كل ما تأتونهُ
هو محسوب عليكم ولهم ترجونهُ

ولست ادري اي شيء في هذا الشعر مما يستحسن او يستملح واي معنى فيهِ يدل على فكر سامٍ واي تصور يبدي عن خيالٍ فسيح فيرفع صاحبهُ الى مرتبة البلغاء المجيدين . وقد نشرت الجريدة ايضاً ردًّا عليهِ من شاعر آخر اسمهُ جورج لنتش يذم بهِ تغرير الانسان بقتل الانسان واحداث المفاسد والشرور منها قولهُ

احملوا حمل الحضاره وامنكو املاكنا
وانشرونا في الفيافي واخضدوا اشواكنا
جئتمونا بسمومٍ وخمورٍ تهلكُ
وجحيمٍ يحشر الله بهِ ويهلكُ

ولعمري ان الشعر الاول لا ينبغي ان يرد عليهِ باحسن من الشعر الثاني وها كما قيل

وكلا النوعين لا يصلح الاَّ للحريق

ولو رد عليهِ عربي على لسان ابي الطيب المتنبي لقال

صحِبَ الناسُ قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنهِ ما عنانا
وتولوا بغصة كلهمُ منهُ وا ن مرَّ بعضهم احيانا
ربما تحسن الصنيعَ لياليهِ ولكن تكدِّرُ الإحسانا

وكأنّه لم يرضَ فيه بريب الدهر حتى اعانهُ من أعانا
كلما انبت زمانٌ قناة ركّب المرء في القناة سنانا
ومُراد النفوس اصغر من أن نتعادى فيه وأن نتفانى
غير ان الفتى يُلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا
ولو أنّ الحياة تبقى لحي لعددنا اضلّنا الشجعانا
واذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز ان تكون جبانا
كل ما لم يكن من الصعب في الأنفس سهلٌ فيها اذا هو كانا[1]

٣ — وقد نشرت جريدة المقتطف ايضاً في الشهر الماضي رسالة تكلمت بها اخلاق الانجليز والاميركان وقد تراءتها اكثر من مرة فلم اجد فيها الا حديث جماعة نُقل كما لفظهُ كل واحد بعبارته واسلوبه . وليس في هذا الشيء من البلاغة التي بينا اركانها ولو وضعت آلة الفونوغراف في مكان فيه جماعة يتذاكرون لفاتت على ذلك الكاتب واريت عليه في نقل تعبيراتهم كما هي. وما اشبه هذا بما كان يفعلهُ ابو الرقعمق في بغداد اذ كان يخرج اصيل كل يوم الى الجسر فينظر ما يدور بين العامة في مشاجراتهم ومبايعاتهم ومحادثاتهم فينقلهُ في الصحف كما هو ويثارهُ على الامراء للسمر . وهكذا نرى الافرنج يرمون باغراضهم في الادب الى هذا الاسلوب القصصي ويجعلون عظم عنايتهم في اجادة قص الواقعات لا الى مرامي البلاغة من حيث هي وقد كان هذا الاسلوب القصصي معروفاً عند العرب ولهم فيه المؤلفات المعتبرة عند الافرنج انفسهم ككتاب الف ليلة وليلة ومسامرات ابن بنان وغيرها ولكنهم لم يعدوا مؤلفي هذه الكتب بالبلاغة ولا عدوهم في مصاف الفصحاء

٣ — ومن هذا الباب ايضاً ما نشرتهُ جريدة لسان العرب من تعريب قصيدة لفتكور هيجو اشهر شعراء الفرنسيس يرثي بها فتاة ماتت عقيب حفلة رقص وهي بنصها

"كم قد رأينا فتاة حسناء تموت في شرخ صباها وكم قد رأيت قدم الاقدار تدوس زهرات تلك المحاسن والجمال كما يدوس الراقص على ما يتناثر حولهُ من الرياحين والورود تلك سنة الله في خلقه ينضب الماء بكثرة جريه ويخفي البرق بعد وميضه وتسقط الزهرة بعد تبطلها ويقبل الليل بعد نهارهِ والدنيا وليمة حافلة يجلس حولها الناس افواجاً واكثرهم يقوم و ينصرف قبل انتهاء طعامه

واني اذكر منهنّ واحدة كأنها ملاك كريم بجمال محياها وطهارة قلبها وسواد عينيها و بهجة

(١) يقول الامر الشديد انما يصعب على النفس قبل وقوعه فاذا وقع سهل

محاسنها ونطف قوامها تظللها وردة الشباب الزاهرة ولا تتجاوز سنو عمرها ايام البدر عند اكتمالهِ فصمتها ايدي المنية في ذلك الشباب الناضر فلم يكن موتها من الحب لانها لم تكن تعرف بعد ما شقاء الغرام بل لم تكن تسمع الاَّ قول الناس ما اجملها ولكنها كانت تحب الرقص كثيرًا وهو الذي قتلها و يو انطفأ مصباح ذلك الجمال بل كانت تحب الرقص حتى لو مرت اليوم سحابة على قبرها وهي ترقص حول القمر (ما اخف هذه الخيالات) لرقصت لها عظامها في ذلك القبر

حتى اذا جاءت ليلة الرقص اقبلت تلك الشهيدة الحسناء بين اترابها كانها البدر بين نجومهِ ودخلت في غمار الراقصين يلاعب الهواء ثيابها كما يلعب النسيم بجناح الفراشة وقد هاجت عواطفها رائحة الزهر وحركت فؤادها نغمات العازفين فلم تعد تبصر مما لديها شيئًا ولم تعد تعلم هل ترقص على الارض ام هي طائرة في السماء

ولمَّا انشق جفن الليل عن مقلة الفجر وسكن عزف الموسيقى وخرجت تلك الصبية الحسناء يلتهب خدها التهابًا و يندى جبينها عرقًا كانهُ لؤلؤ مرصوف على صفحة هلال قابلتها نسمة الصباح الباردة ومسح صدرها النادي كف الهواء الرطب فامسك خيط تلك الحياة الزاهية واخذ يسلُّهُ من ذلك الجسم النضير فلم تصل الفتاة الى منزلها حتى تناوبها السعال الشديد ثم تلتهُ الحمى القتالة المحرقة تذيب ذلك الجسد كما يذوب الثلج على النار ثم اخذ الموت وديعتهُ الثمينة وقطفت يد المنية تلك الوردة الحمراء فراحت في عنفوان شبابها شهيدة الرقص المضر"

هذه هي تلك القصيدة التي انتجتها فكرة ذلك الشاعر الكبير ولعمري لو تحادث اثنان من وسط الناس بموت تلك الفتاة لما قالا اقل مما في هذه القصيدة . اذ ليس ثمَّ معنى غريب ولا اسلوب عجيب مما تمتاز بابداعهِ الفكر الخارقة والخواطر الشريفة

واين هذا الشعر من قصيدة علي بن العباس بن الرومي وقد قالها في فتاة اسمها (بستان) ماتت كهذه الفتاة عقيب حفلة غناء وهي قصيدة مطوَّلة نأتي منها بقولهِ

يا غصة السن يا صغيرتها	اصيبت احدى المصائب الكبر
أنَّى اختصرت الطريق يا مكني	الى لقاء الاكفان والحفر
أبعد ما كنت باب مبتهج	للنفس اصبحت باب معتبر
كل ذنوب الزمان مغتفر	وذنبهُ قبلك غير مغتفر
يا بشرًا صاغهُ المصور من	نور على سنة من الفطر
بل من شعاع العقول حين ترى الـ	غيب بعين الذكاء والعبر

أبكيك بالدمع والدماء بل بما ... سهاد بن بالمشيب في الشعر
بل بحول العظام محتقر ... ذلك ون كان غير محتقر
تبتل العود عند فقدكم ... وزدجر الهو ي مزدجر
فان سمحنا بزهر وترا ... حنّ فباتيك عزلة الوتر
لله ما ضمّنت حفيرتها ... من حسن مرأى وطيب مختبر
اضحت من الباكي حظائرهم ... سكنى الغواني مداهن الشرر
لو علم القبر من أتيح له ... لافتخر القبر غير مختفر

٤ — ومن هذا الباب ايضاً ما عرّبهُ بعض الادباء من قصيدة لفكتور هوجو المتقدم ذكرهُ اسمها (واترلو) يصف بها موقعة واترلو الشهيرة التي وقعت بين نابوليون الاول وملوك اوربا ويصف فيها نابوليون واقدامهُ وهي

لقد وقع في هذا السهل موقعة كبرى خلط الموت فيها الجيوش فماجت بهِ كما يموج الماء في حوض مضم وكانت فرنسا في ناحية واوربا تقاتلها في ناحية تغالب ثمة امل الشجعان وحقت عليهِ الواقعة . ابكي على هذه الموقعة وحق لي البكاء اذ هؤلاء الشجعان كانوا خيرة الرجال وقد فتحوا الارض ودوخوها وطردوا عشرين ملكاً وجازوا جبال الالب ونهر الرين . وقد كانوا الى المساء هاجمين ومنتصرين ومضايقين للجنون القائد الانجليزي اذ حازوهُ الى الغابة وكان نابوليون والنضارة في يدهِ يتاب نظرهُ تارة في وسط الجيش اذ يراهُ كأنهُ حصيد وتارة يتأمل الافق كأنهُ البحر في ظلامهِ وبينما كان يؤمل مقدم الجنرال جروش لنجدتهِ اذ رأى قدوم الجنرال بلوخر عدوهِ فانقطع الرجاء وتغير الامر في الحرب واخذت المدافع الانجليزية تحصد مربعات الفرنسيس واصبح السهل بما فيهِ من الدماء والقتل المستحر كفوهة متقدة تسقط فيها الفيالق كأنها قطع من حائط فلما رأى ذلك نابوليون وادرك الخطر بحذقهِ العجيب وحسن نظرهِ امر جيش الحرس وهو اعظم فيالق الجيش الفرنسوي وعلى رؤوسهم الخوذ اللامعة بالتقدم فجروا عليكهم وتقدموا للموت باسمين على انغام الموسيقى فلم يلبث نابوليون حتى نظر الى هؤلاء الابطال وقد التحموا في الموقعة وصاروا يتساقطون في تلك الفوهة المحرقة صابرين فريقاً بعد فريق حتى لم يبقَ منهم احد وعندها انقطع الرجاء وامر جنودهُ بالتقهقر فانهزم هذا الجند الذي طالما هزم العالم باسرهِ قبلُ (انتهى)

والعجب ليس في هذه القصيدة من وصف هذه الحرب اكثر مما نراهُ في الجرائد كل يوم من وصف المواقع والمعارك والقواد

ولقد وقفت على رسالة كتبها اثناء رحلته امام الادب وشاعر العرب صاحب السماحة والسيادة السيد محمد توفيق البكري وفيها شيء من الغرض الذي تكلم عنهُ فكتور هوجو في قصيدته المتقدم ذكرها فاردت ذكر ذلك هنا تبياناً لآيات الفصاحة العربية والموازنة بين الشاعرين وقد اتفقا في غرض واحد تقريباً وها هو الذي اقتطفتهُ من تلك الرسالة

"وقد وقفت اليوم سويعات على جدث نبوليون انظر الى الاستكانة بعد الصولة، وتبر في جوفهِ دولة . وصولجان كانت كرتهُ الارض امسى مخراق لاعب . ومقاصير زُينت للسرور دهرًا فأمست ملتقى ناع وناعب

أضحت قبورهمُ بعد عزهم تسفي عليها الصبا والخرجف الشملُ
لا يدفعون هوامًا عن وجوههم كانهم عشب بالقاع منجدلُ

سبحانك اللهمَّ وسعدانك . ما أعز شانك . هذا غلاَّب القياصرة وقهار الجبابرة . يدفع عنهُ سلطانهُ الاقيال والابطال . ولا يدفع عنهُ الارض [٢] والنال . ذاكم هو الموت الذي لولاهُ لما كان للشجاعة . فضل على الجبن والضراعة . اذ لو أمن المفؤود الحمام . امسى كفارس خصاف او كبسطام [٣]

وغاية المفرط في سلمٍ كغاية المفرط في حربهِ
فلا تفي حاجتهُ طالب فؤادهُ يخفق من رعبهِ

نابوليون وما نابليون اسم ترك دويًّا في كل قطر . كانما تداول سمع المرء انملهُ العشر . [٤] وجسم شخت نحيف . سرعرع فضيف وفتى من الجند أحدث ملكًا اين منهُ ملك قيصر وكسرى هو كرة الارض قامر بها الرجل فكسبها في ساعة وخسرها في اخرى . ملك جحجاح . قلس طرمّاح . شهاد اندية . عقاد الوية . فتاح امداد . طلاح انجاد . تعلق به اشتاق الديات . ولا ينام على ترات . اخو عنجهيَّة يحو الشر بالشر . كما يتداوى شارب الخمر بالخمر . اسد يترجّ وخفان . لا يقتطع لهُ بالشان . كريم الظفر . وكذاك ذو المنة اذ قدر . انما الضعيف الذي ان راى ازمة وهل وان اصاب فرصة قتل . آفق همام . كانهُ من نفسهِ في جيش لهام . فكم حصن ثغر . يحوم منهُ نسر السماء على وكر . تدلى عليهِ مع الظلام كما تدلت عقاب من شاريخ

---

(٢) الارض هوام صغيرة والنال جمع نلة

(٣) المفؤود الجبان يعني لو امن الجبان الموت اصبح شجاعًا مقدامًا ولم يبق للشجاعة فضل على الجبن . وفارس خصاف وبسطام بن قيس من شجعان العرب

(٤) يعني ان الدوي الذي تركهُ كالدوي الذي يحدثهُ الانسان اذا سد اذنيهِ باصابعهِ

الاعلام . يهكم دولة قلبها . وربة نصبها . وعقبة اقحمها . وكتيبة التحمها . وصعبة راضها . ولجة خاضها . وكم له في الوقائع من ايام . لا تمحو ذكراها الليالي والايام . أجدك ما يوم يابا وما ريح باحقر من يوم زحزحان . ويوم جبلة بين عبس وذبيان . وكأني انظر اليه يوم الزحف وهو على فرس اشقر نهد امق . كأنهُ قبة رفعت على رماح . او ان قوائمهُ الاربع اربع الرياح وتحت ابطهِ سيفهُ الذي اقلدتهُ الرقاب مكان الاطواق وحال حتى بين القلوب والاشواق . تجالهُ الحارس على النعامة . وعمرًا سيفي يدوي الصمصامة وقد انبسط امامهُ السهل والصمصحان . وارتفعت القنن الخضراء والرعان . وقد تراءى الصفان . وتلاقى الكتيبتان . وهو في صف . والامم جمعاء امامهُ في صف . وقد ماج بهم كل نجد وقاع . كما يموج الغيل بالسباع . يبرق على اكتافهم الوشيج والمران . والاسل والخرصان كأنهم ليوث وهي انياب . او انهم عقارب شائلات الاذناب . وعلى صدورهم دروع كالجمد الماء . وتقلبت الحية العرماء . وثم المجانيق جثى كالابل بركت على ثفناتها . والقدور تلظى على اثفيتها . ثم حمَّ القتال . فزلزلت الاقدام . وطارت فراش الهام . ووقعت الاسنة على المغافر . وبلغت القلوب الحناجر . فلا ترى الاَّ المنجنيق يحكي زئير الاسد في البيداء . ويرسم اقواس قزح في السماء . وتجاجاً خلا لهُ القواضب والخرصان . كالنجوم في الليل والشرر في الدخان . وجنودًا تبدو وتخفى في الدماء . كأنها صور الفوارس في كؤوس الصهباء . وطعنًا وحيًا يُعلِم . قبل ان يؤلم . كل طعنة نجلاء . كما تنهز في جمة الطوي الدلاء . وسيوفًا تهاوى كأنها ورق الشجر هزه سقوط المطر . تنثر الرؤوس نثر الجمان كأنما تنفر طيرًا كن وقوعًا على الابدان . ولا شيء الاَّ اشلاء ممزقة وجآجيء مخرقة . وحمائم على الرماح كأنها همزات على الفلات . ودماء احمرَّ بها كل سهل وجبل . كان في خد الارض منها خجل . هذا وهو يخطر بين الصفين . ويهرول بين العدوتين . ويصول كالليث عاديًا . والقوم دونهُ كالكروان ابصرن بازيًا . يرعف حولهُ الحديد الاخضر . بالنجيع الاحمر . ويلتقي في الرقدة الرمح بالرمح . كما يلتقي سيفي الرقدة الهدب . بالهدب . ويدنو ويبعد حولهُ الصفان . وهو ثبت كأنهُ خندلية من كثبي تهلان . حتى يتجلى لهُ النصر من وراء ذاك القتام . كما تتجلى الشمس من خلل الغمام . وما برح هكذا في فتوح بتبعها فتوح . وغبوق من الظفر يتلوهُ صبوح . وسير . لا يزال معقودًا بناصيته الخير . حتى اراد الله خذلانهُ فسار لقتال الروس . في يوم قطريز عبوس . فقهرهم وفقد جندهُ فأمسى هو المقهور . كأنية الزجاج تقابلت والكل كاسر مكسور . وبامرعان ما تألبت عليهِ الاعداء . حتى زالت دولتهُ الشماء . فغابت مغيب الشمس في كفن من الدماء . ثم استرجعها حفيدهُ بعد الذهاب . وحفظ

من نور ذلك المجد بقدر ما يحفظ القمر نور الشمس بعد الغياب . على انهُ قلَّما يقبل الأمر بعد ادباره . فانها ما ثبتت ان ذهبت على آثاره

ثم انقضت تلك السنون واهلها فكأنها وكأنهم أحلام

اما نابليون فاضحى بعد الهزيمة ولا جنود ولا أعلام ، كصنم الجاهلية في زمن الاسلام . كان بالامس ربًّا . فاصبح حجرًا صلبا . واعتقل في جزيرة قاصية . وصخرة في جوف البحر نائية . قضى فيها آخر عمره . ولا رفيق لهُ غير فكره . وكأني بهِ وقد وقف بقامتهِ القصيرة . على قنة من قنن الجزيرة . ينزه الفكر . في امواج البحر . فرأى خيالهُ وقد طال على لجهِ . وامتد بعيدًا على تيههِ . فشبهَ قامتهُ وهذا الخيال . بحالتهِ اليوم وما كان فيهِ من الدولة والاقبال . ثم انهُ قضى هناك . فدفن في حفرة بين الغضا والاراك

ومن ضاقت الارض عن نفسهِ حريٌّ ان يضيق بها جسمهُ

وبقي ثمة الى ان نقلهُ القوم الى ضريحهِ الذي رأيتهُ مذ اليوم . فسبحان الذي بيدهِ ملكوت كل شيء واليهِ ترجعون

٥ — وقد نشر نجيب افندي الحداد تعريب قصيدة اخرى لفكتور هوكو الشاعر الشهير (نظمها بعنوان نابوليون الثاني ووصف بها ميلاد هذا الطفل) وما كان يرجى لهُ من سعد الطالع ثم ما صار اليهِ حالهُ وهي " في العام الحادي عشر من بداية هذا القرن كانت شعوب لا تحصى وامم لا عدد لها تحدق بقصر اللوفر الكبير احداق الغمام وهي تنظر اليهِ بعين التأمل وتتطلع بجموعهُ بقلب المؤمل والقصر في وسطها كأنهُ طور التجلي تلمع من خلالهِ بروق الاقبال وتظلل اعالي شرفاتهِ سحائب الآمال والناس تموج من حولهِ افواجًا ويقول بعضهم لبعض سيولد لنا اليوم مولود عظيم واليوم تنتظر الدولة العظمى ميلاد واريثها فاذا عسى يرزق الله نابوليون الكبير ومن سيكون ولي عهد هذا الرجل العظيم الذي هو اكبر من قيصر واعظم من روما وقد جمع في يديهِ مستقبل الشعوب وازمة الممالك وعنان الدنيا يصرفهُ كما يشاء ويقلب كرة الارض على بنانهِ كما يريد . وبينما هم يتساءلون عن ذلك النبأ العظيم انفتحت شرفة القصر كما ينفرج الغمام وظهر على الشعب ذلك الرجل العظيم كأنهُ يطل على الدنيا باسرها ويشارف العالم بافكارهِ من رفعتهِ وجلال قدرهِ فخفقت عند ذلك الاصوات وعنت الوجوه وسكتت الالسنة ثم ارتفعت الابصار لتنظر ما يحمل لها ذلك الجبار بين يديهِ من بشرى ولاية عهدهِ واذا بها قد اطرقت هيبة واجلالاً لطفل صغير كان يحملهُ الامبراطور على ذراعيهِ كانهُ يبشر بهِ الارض باسرها ولم يكد ذلك الطفل يظهر للوجود حتى خفقت

لانفاسه الضعيفة ربات البلاد كانها تخفق تحت ريح عاصفة وحتى دوت لاهلالهِ وصوت بكائهِ افواه المدافع الهائلة وهو بين يدي ابيهِ كانهُ كوكب دري تحملهُ شمس منيرة من المجد والفخر. ولما اظهر الوالد مولودهُ لكل تلك الشعوب ورآهُ تعنو لهُ عوالي الرؤوس والتيجان اخذتهُ عزة الملك وتولاهُ زهو الرئاسة والمجد ونظر الى الدنيا وهو في ابهة نصرهِ وجلالهِ كما ينظر النسر الى ما تحت معقلهِ من الهضاب وصاح بصوت المنتصر الظافر. المستقبل لي

فاجابهُ صوت الشاعر من وحي الغيب لا يا مولاي ليس المستقبل لاحد ان المستقبل لله فلا يغرنك ما ترى من عظمة الدنيا ومجد الملك وعزة الانتصار وبهاء التيجان وقبل المطامع والآمال فان كل ذلك وهم باطل وظل زائل لا يخيم على فؤاد صاحبهِ الا كما تخيم السحابة السارية في كبد السماء وانت ايها المستقبل الذي ادعوك بالغد وتسير واياما جنباً الى جنب مهما كان الانسان عظيماً ومهما كان التماسهُ منك شديداً لا يقدر ان يعرف منك شيئاً قبل حينهِ ولا يمكن ان تفرج شفتاك عن الخبر اليقين الا متى آن اوانه والعلم لله انما الغد شيء عظيم لان الغد شيء خفي مستتر لا يعرف كنههُ احد ولا تقدر ان تدركهُ مقلة انسان بل هو الارض الواسعة يلقى فيها المرء بذار اعماله والله يدري متى يكون نباتها ومتى تجنى ثمارها انت تقدر يا مولاي ان تفتح المدائن وتدوسها بحوافر جوادك ولكنك لا تقدر ان تأخذ الغد من الله

ان في تصاريف الدهر لعبرة لقد ولد ذلك الطفل فكان اول تيجانهِ وهو في المهد تاج رومة واول القابهِ ملك الرومانيين ولقد جمع لهُ ابوهُ آثار المفاخر وشجد المعارك وصنع لهُ وجه الدنيا على ما يريد كما يصنع الصانع قوام التمثال ووضع امامهُ فرنسا كاساً ملؤها الرجاء والآمال ولكنهُ قبل ان يمس تلك الكاس اقبل فارس الدهر بجوادهِ فحطمهُ من مهد جلالهِ واردفهُ في مؤخر سرجهِ"

هذه هي قصيدة الشاعر الفرنساوي وقد رايت في كتاب صهاريج اللؤلؤ وهو مشتمل على رسائل سماحة السيد البكري رسالة في هذا المعنى نصها

"كتابي الى المولى الهمام من فاهرة المعز وانا في شوق اليهِ كشوق عكرمة [٥] غاب عنها الفها فاستقبلت سهيل . وقطعت بالانين جوانح الليل . بكاء ولا دمع . كمد جن ولا همع . واصوات لا تعرف معناها . ولا تجهل شجاها . وجوى كالنفس يتقدم مع كل ظلام . فيهتاج لهُ ساكن الحمام . وبعد فقد جاء في كتاب السيد فبرقت الاسرة بشراً بالمولود الذي سلهُ الله من الغيب سل المهند المغمود فيا لهُ من قسور غاب في شبل . وباقعة تقاب [٦] في طفل .

(٥) العكرمة الحمامة (٦) اي ذو معرفة مجرب

كالنخلة العيدانة [٧] في النواة . والكتاب المؤلف في الدواة . قد كمن فيه العرف والتركيب الرحيق في العنقود . والحريق في العود . درة من الشرف . تعلق عنها الصدف . وكوكب من دراري معدّ تنتق عنهُ الغمام . وزهرة من دوحة لؤي تفتح عنها الكمام . عالم كبير . في شخص صغير . كالشمس في المرآة [٨] والارض في مصوّر الجغرافيّة . ومعنى حصير . في لفظ قصير . كعنوان الكتاب وفذلكة الحساب . تنقل في الاصلاب من آبائهِ الاوائل . كأنهُ القمر تنقل في المنازل . الى ان خرج للوجود خروج المزن . من الدجن . خير عام . للأنام . فيالهُ من أمير . سريرهُ سرير . كالنجم صغير كبير . ان قلنا لهُ يا ابن خير أم واب . فقد سميناه للعجم والعرب . صغير وهو الأول قدرًا . كما يُبتدى في العد بالاصبع الصغرى . وكأني به وقد شدا ان شاء الله تعالى يلعب بانكرة . كما يلعب الصبي بالكرة . ان نطق فامرؤ القيس او اقدم فبسطام ابن قيس . وكأني انظر لهُ وقد شهد الاندية . وعقد الالوية وحمي العشير . وجبر الكسير

وافتنّ فيهِ الناظرون فإصبع يومى اليهِ بها وعين تنظرُ

وكيف لا يكون كذلك وهو سليل بيت تجيد . ابدع فيهِ معنى العلى حتى حسبناهُ بيت قصيد . شجرة خضراء . اصلها ثابت وفرعها في السماء وكذاكم ان طاب الشجر . طاب الثمر . وقد نجلهُ والد جليل . في رتبة بين الغفر والاكليل . عذيق مرجّب . لو رآهُ النابغة ما قال امي الرجال المهذّب . طبنٌ لو ناظرهُ العربي صار العجميّا . ولو ناظرهُ الاعجمي صار عربيًا . اهدي الى طرقات الفضل . من دُعَيْميص الرمل [٩] . سميذع شراب بانقاع . جليسه جليس قعقاع [١٠]

وادعٌ يلعب بالدهر اذا جدّ في الكرومة قلت هزلْ

هذا وقد اشار عليَّ السيد حفظهُ الله في كتابهِ بترك التعمل برعة . والفراغ للنقلة والنزهة . ترويحًا للنفس من كلف القراطيس والمحابر . الى بلهنية الرياض والازاهر . ولعمري قديمًا قلت لهذا الفكر الى كم تحيي الظلام . وتحرق نفسك ليل التمام . اما آن للنضو الطليح . ان يستريح . فقال اليك عني انما انا نبراس . احترق لكي يستضيء الناس " انتهى

اللهم ان هذه هي الموهبة العظمى التي يهبها الله لمن شاء من عباده والبلاغة العالية التي تزل دونها الاقدام وتقاصر عندها الاقلام ومن تأمل في جميع ما اوردنا هنا من فصاحات العرب وقاسهُ على ما ذكرناهُ لبلغاء الافرنج وجد الفرق واضحًا والتناسب بعيدًا وهذا ما اردنا بيانهُ والله اعلم

---

(٧) العيدانة العظيمة (٨) المرآة

(٩) دعيميص الرمل دليل مشهور بمعرفة الطرق عند العرب

(١٠) قعقاع هو قعقاع بن شور ويضرب بجليسه المثل وفي الشعر (ولا يشقى لقعقاع جليس)